

أصوات في سماء المدينة

. سامي مهدي ❖ .

« مدينتنا لا تنام .
مدينتنا يأكلُ الرَّمْلُ والنملُ أطرافها
كالجُذام .
مدينتنا ليسَ فيها من الحبِّ شيءٌ ،
وليستْ ، كما قيلَ ، دارُ السلامِ . »

« صوتُ مَنْ تسمعون ؟
صوتُ ناعٍ جديدٍ ؟
أم أبي جعفرٍ وهو يرثي مدينته ،
أم تراه الرشيدُ ؟
أم الكازرونيُّ يتلو مقامته
ويُعيدُ ؟ »

« يموتون في الليلِ أو في النهارِ .
يموتون في كلِّ وقتٍ ،
على حجرٍ ،
أو شفا حفرةٍ ،
أو رصيفٍ .
يموتون من دونِ حشرجةٍ أو نزيفٍ ،
فلا وقتٌ ،

لا وقتَ إلا لموتٍ نظيفٍ ،
كموتِ البروقِ ، بدونِ احتضارٍ . »

« أو هذا منادي المزايدِ
ينادي على بعضِ ما يعرضُ السندبادُ ؟
أم الحسنُ بنُ هاني يُجرِّئه السُّكْرُ ؟
أم هو عيارُ بابِ الهوى ،
أم فتىٌ جنٌّ ممَّا روتَ شهرزادُ ؟ »

« مسيحٌ .. مسيحٌ .. مسيحٌ جديدٌ
بأجنحةٍ من حديدٍ ،
وصاياهُ منقوشةٌ في رؤوسِ صواريخٍ
تُطلقُ من كلِّ صقعٍ بعيدٍ . »

« سلاماً ..
فلسنا هنا غيرَ قافلةٍ
تتعبُّ نجمَ المسيحِ الجديدِ ،
وقد ظهرَ النجمُ من جهةِ البحرِ ،
جاءَ على ظهرِ بارجةٍ كي يُعمدنا ،
ويُيسرنا بولادةٍ عصرٍ سعيدٍ . »

« صحيحٌ ؟ !
ولكننا لا نرى فيه ما في المسيحِ !
فلا هو يُبرئُ أعمى ،
ولا هو يُشفي كسيحاً !
رسالته الحربُ ، لا الحبُّ ،
أمّا قداديسه فهي تلهجُّ بالقتلِ
في كلِّ ترتيلةٍ ونشيدٍ ! »

« رؤوسٌ .. رؤوسٌ .. رؤوسٌ
مُقطَّعةٌ بالسَّواطيرِ أو بالفؤوسِ
مبعثرةٌ في المزابلِ ،
لكنها تتحدى ،
وتسطعُ أنوارها كالشموسِ ! »

« سقطَ الآنَ منا شهيدٌ !
سقطَ الآنَ بين الرصافةِ والكرخِ ،
واحتزَّ منه الوريدُ
فاجرٌ من بقايا المغولِ ،
وعلَّقَ جثمانه فوقَ جسرِ الحديدِ ! »

❖ - شاعر من العراق .

« مَنْ سَيَجْمَعُ أَشْلَاءَ هَذَا الْقَتِيلِ؟

مَنْ سَيَعْرِفُهُ؟

مَنْ سَيَدْفِنُهُ؟ مَنْ سَيَبْكِيهِ؟

أَمْ أَنَّهُ لَا نَصِيبَ لَهُ قَطُّ

فِي مَهْرَجَانِ الْعَوِيلِ؟! »

« بَلْ سَيَعْرِفُهُ النَّخْلُ،

تَعْرِفُهُ الْأَرْضُ،

تَعْرِفُهُ الْأُمَّهَاتُ .

فَلَهُ ظِلُّهُ فِي الدَّرُوبِ،

وَنَسَمْتُهُ فِي الْبُيُوتِ،

وَنَطْفَتُهُ فِي الْحَيَاةِ . »

« قَمْرٌ فِي سَمَاءِ الْبَسَاتِينِ وَجْهٌ

الْحَبِيبِ .

قَمْرٌ لَا يَغِيبُ

عَنْ عَنَاقِيدِ أَعْنَابِهَا،

وَطَنَافِسِ أَعْشَابِهَا،

وِثْرَاهَا الشَّدِيَّ الرَّطِيبِ .

قَمْرٌ هُوَ وَجْهُ الْحَبِيبِ .

قَمْرٌ لَا يَغِيبُ . »

« أَرَاهُ يُلَوِّحُ لِي مِنْ خِلَالِ الْغُبَارِ،

وَأَسْمَعُهُ وَهُوَ يُنْشِدُ،

أَوْ يَسْتَحِثُّ رَفِيقًا لَهُ عِنْدَ بَدءِ النَّهَارِ .

حَبِيبِي لَهُ فِي الْبَرَارِيِّ طَرِيقُ

وَمَاءُ أَصَابِعِهِ شَعْلَةٌ فِي الْحَرِيقِ .

تَأَخَّرَ عَنْ مَوْعِدِ بَيْنِنَا،

فَمَوْاعِدُ أَيَّامِنَا هَذِهِ

أَمَلٌ غَامِضٌ وَانْتِظَارٌ . »

« مَنَعْتَنِي الْخَوَاجِزُ مِنْ أَرَاكِ،

وَطَارَدَنِي جُنْدُ جَنْكِيَزِ

مَا بَيْنَ جَسْرِ وَجَسْرِ،

وَأَرْبَكْنِي شَامَتْ صَاحَ بِي :

عَدَّ . . مَهَاتُكَ لَيْسَتْ هُنَاكَ .

مَنَعْتَنِي الْخَوَاجِزُ،

لَكِنِّي مَا امْتَنَعْتُ،

وَقُلْتُ : أَرَاهَا، وَلَوْ دُونَ هَذَا الْهَلَاكِ . »

« قَادَنِي نَحْوَ بَابِ الْهُوِيِّ

هَاجِسٌ مِنْ هَوَايِ،

وَلَمَّا وَصَلْتُ تَعَثَّرْتُ،

وَاخْتَلَجْتُ قَدَمَايِ .

كَانَ ثَمَّةَ أَشْلَاءُ قَتْلِي

مَبْعَثَرَةً فِي مَرَامِي خَطَايِ . »

« جَلَسْتُ عَلَى ضَفَّةِ النَّهْرِ،

لَكِنِّي لَمْ أَجِدْ دَمْعَةً لِلْبَكَاءِ

فَغَنَيْتُ،

غَنَيْتُ حَتَّى اسْتِثَارَ الْغِنَاءُ

بِلَابِلِ بَغْدَادِ،

فَانْتَضَمْتُ فِي نَشِيدِ

تَصَاعَدَ حَتَّى سَقُوفِ السَّمَاءِ . »

« إِجْرِي يَا دَجْلَةَ الْخَيْرِ،

إِجْرِي الْهُوَيْنَا، وَرَوِّ الضَّفَافُ .

إِجْرِي، لَا تَهْرَبِ الْآنَ مِنْهَا،

فَمَا الرَّمْلُ وَالنَّمْلُ إِلَّا سَوَافٍ عَوَابِرُ

فِي مَوْسِمِ الْجَفَافِ .

إِجْرِي يَا دَجْلَةَ الْخَيْرِ،

إِجْرِي الْهُوَيْنَا،

إِذَا خَفْتَ مِمَّا نَخَافُ! »

« تَوَقَّفْ قَلِيلًا .. تَوَقَّفْ .. أَمَا تَرِيدُ؟ »

« وَأَيْنَ هُوَ الْمَاءُ وَالرَّمْلُ يَزْحَفُ

وَالنَّهْرُ يَهْرُبُ،

وَالْأَرْضُ مُثْقَلَةٌ بِالْقِيُودِ؟! »

وَبِضَاعَتِهَا بِشَرِّ

بِعَقُولٍ مُزْرَرَةٍ،

وَقُلُوبٍ مُرْقَمَنَةٍ،

وَأَعَاجِيبُ لَمْ تُعْطَها فِي الْوَعُودِ! »

يَكْسِرُهُ الْمَوَكَّلُونَ بِنَا دُونَ عَدِّ،

وَهُمْ مَنْ سَيَأْكُلُهَا عِنْدَمَا يَنْتَهُونَ،

وَلَا يَنْتَهُونَ،

وَلَا يَشْبَعُونَ. »

« تَمَهَّلْ .. فَثَمَّةٌ مِنْ تَرْتُوي مِنْ

بِنَابِيعِهِ،

وَيَزِيدُكَ إِذْ تَسْتَزِيدُ! »

« وَمَنْ هُوَ؟! »

« هَذَا الْمَسِيحُ الْعَتِيدُ!

الْمَسِيحُ الْمَصْفُوحُ حَتَّى نَوَاجِذِهِ

بِالْحَدِيدِ!

فَجَرَّبَ إِلَهَكَ،

وَالْحَقُّ حِضَارَةٌ عَصِرٍ جَدِيدٍ،

مَوْحَدَةٌ سَوْفُهَا،

وَتِجَارَتُهَا حَرَّةٌ،

« دَائِمًا يُنْشِدُونَ لَنَا مِثْلَ هَذَا النِّشِيدِ .

دَائِمًا كَانَ ثَمَّةٌ شَيْءٌ يَخْصُ

الْحِضَارَةَ

فِي مَا يَقُولُونَ أَوْ يَكْتُبُونَ .

وَالْحِضَارَةُ تَعْنِي رِسَالَتَهَا،

وَالرِّسَالَةُ تَعْنِي بِلَاغَتَهَا،

وَالْبِلَاغَةُ مَوْصُولَةٌ بِالْبَطُونِ .

فَالْحِضَارَةُ، فِي آخِرِ الْأَمْرِ،

لَيْسَتْ سِوَى عَجَّةٍ

بَيِّضُهَا نَحْنُ

« مَدِينَتُنَا لَا تَنَامُ .

مَدِينَتُنَا يَأْكُلُ الرَّمْلُ وَالنَّمْلُ أَطْرَافَهَا

كَالْجُدَامِ .

مَدِينَتُنَا قَدْ تُبَاعُ،

وَقَدْ تُشْتَرَى،

بِالْكَلَامِ،

وغيرِ الْكَلَامِ،

وَلَكِنْ أَبْنَاءُهَا يُولَدُونَ

وَأَذْرَعُهُمْ شُرْعٌ،

وَأَصَابِعُهُمْ تَتَوَعَّدُ فِي غَضَبِ

وَاحْتِدَامِ! »

بغداد